منشورات جامعة وادي النيل
مجلة النيل للآداب والعلوم الانسانية
(ISSN: 1858 – 7054)
المجلد الأول، العدد الثاني، 2020م
http://www.nilevalley.edu.sd

ممالك النوبة المسيحية: أصولها عوامل نشأتها

محمد أحمد عبد المجيد أحمد

مركز الأثار – جامعة وادي النيل
abdelmageeddd@gmail.com

المستخلص

يتناول البحث سلسلة الاحداث التي شهدتها بلاد النوبة في الفترة المروية المتأخرة والتي أدت في النهاية الى انهيار المملكة وقيام ممالك النوبة المسيحية فيما بعد. كما يتناول البحث التواصل والاستمرارية الثقافية والاثنية بين فترتي مروي وما بعد مروي. وبالاستفادة من المصادر التاريخية القليلة المتوفرة والمخلفات الأثرية المكتشفة وتحليلها توصل البحث الى ان مجموعات محلية تحمل ملامح حضارة مروي هي من قادت الاحداث لسقوط مروي واستمرت بنفس ملامح حضارتها في فترة ما بعد مروي وتمكنت في النهاية من تأسيس ثلاث ممالك هي نوباتيا والمقرة وعلوه ، والتي تنصرت لاحقاً وشكلت عماد الحضارة المسيحية في العصر الوسيط النوبي.

كلمات مفتاحية: الآثار، الثقافة، مروي، ما بعد مروي، النوبة، الممالك النوبية، العصر الوسيط.

Christian Nubian Kingdoms: Origins and Factors of the Rise

Mohammed Ahmed Abdelmageed Ahmed

Archeology Center, Nile Valley University
abdelmageeddd@gmail.com

Abstract

The research deals with the events that took place in Nubia in the late Meroitic period, which ultimately led to the collapse of the Kingdom, and the rise of Christian Nubian Kingdoms later. The research also deals with the cultural and ethnic continuity between Meroitic and Post-Meroe periods. By taking advantage of the few available historical sources and the discovered archaeological remains and analyzing them, the research concluded that local communities which have features of the Meroe civilization led the events to the fall of Meroe and continued with the same features of civilization in the Post-Meroitic period. Also in the end they established three kingdoms, which are Nobatia, Makuria and Alodia, which later became the Christian kingdoms of Medieval Nubia.

***Keywords*:** Archaeology, culture, Merowe, Post-Meroitic, Nubia, Nubian Kingdoms, Medieval period.

مقدمة

اهتم الباحثون كثيراً بآثار وتاريخ ممالك النوبة المسيحية ولاسيما المملكتان الشماليتان نوباتيا والمقرة. وذلك لوجود كم هائل ومتنوع من بقاياهما على ضفتي النيل والجزر في شمال السودان. ولعل الفضل الكبير يرجع في ذلك لحملة اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة في العقد السادس من القرن الماضي وما تمخضت عنها من نتائج مدهشة من آثار تنوعت بين جل العناصر الحضارية... مدنية وعسكرية و دينية ..الخ.

وقد يؤخذ على هذه الحملة اهتمامها الكبير بدراسة الآثار الصروحية ككنائس فرس وكثدرائيتها، وبعض مواقع التحصينات. هذا بجانب طبيعة الحملة الانقاذية التي تركز على إنقاذ ما يمكن إنقاذه في فترة زمنية محددة لا تعطي الباحثين الفرصة الكافية للدراسات الشاملة المتأنية. وبالرغم من ذلك إلا أن الفضل يرجع لها في الكشف عن هذه الآثار وجعلها محط أنظار الباحثين، ومن ثم الانتقال إلى مواقع أخرى لم تهددها مياه السد العالي بالغرق مثل سوبا ودنقلا العجوز وغيرها.

ومن زاوية أخرى فقد خلفت لنا المصادر التاريخية المكتوبة ذخيرة من المعلومات عن تاريخ الممالك النوبية تناولها الدارسون كثيرا. وقد تكون ذات فائدة عظيمة إذا ما درست بترو وتمحيص واختيار سليم للمعلومات الصحيحة التي وردت فيها.

وبالرغم من النتائج الكبيرة التي وصلت إليها الأعمال الأثرية التي أنجزت والتي تجرى حتى الآن، وبالرغم من كثرة الكتابات التاريخية الموروثة عن كتاب عاصروا الممالك النوبية المسيحية أو لم يعاصروها، إلا أن الغموض ما زال يكتنف عناصر أساسية يقوم عليها تاريخ هذه الممالك مثل أصولها وتنظيماتها الاجتماعية وحدودها السياسية وامتداداتها الجغرافية.

إن واحدة من الصعوبات الكبيرة التي تواجه الباحثين في التراث الحضاري السوداني هي أن الاهتمام بالكتابة والتدوين قد بدأ متأخراً جداً، مقارنة بالجوانب الحضارية الأخرى التي ظهرت منذ وقت مبكر، مثل صناعة الخزف والعمارة والتنظيم الإداري والسياسي والاقتصادي. وحتى الكتابات التي بدأت بالهيروغليفية المصرية في العهد النبتي مروراً بالعهد المروي لم تهتم بتدوين تفاصيل الحياة اليومية عدا بعض الكتابات الدينية والطقوسية وبعض انتصارات الملوك على أعدائهم. كذا الحال بالنسبة للفترة المسيحية التي كان الاهتمام فيها كبيراً بالكتابات الدينية والطقوسية.

ولعل جهلنا عن فهم دلالات ومعاني الرموز والمفردات الخاصة باللغة المروية، مازال يقف حجر عثرة في سبيل تعرفنا على ما إذا كان المرويون قد خرجوا من نطاق الكتابات التقليدية، وكتبوا عن تفاصيل أخرى تهمنا في هذه الدراسة، مثل طبيعة التكوين السكاني والقبلي للإمبراطورية المروية، والعناصر السلالية التي أثرت بشكل أو بآخر على سير الحياة اليومية، ومجريات أمور الحكم والإدارة

والإحداث التي أدت إلى بروز قوى جديدة، مثل أولئك الذين أسسوا ممالك النوبة التي تحولت إلى المسيحية فيما بعد.

وتبقى لنا ما دونه الكتاب الكلاسيكيون والكتاب العرب في القرون الوسطى وهم بالطبع ليسوا من سكان البلاد الذين عاصروا تفاصيل الحياة اليومية. وبالرغم من ذلك إلا أنها ستبقى مصدراً مهما من مصادر التاريخ النوبي إذا ما تم تناولنا بحذر وتمحيص من أجل إجلاء الحقائق فقط مما ذكرت فيها من معلومات.

ويتناول هذا البحث بالتحليل الفترة المتأخرة من مملكة مروي، والأسباب التي أدت إلى أفولها. وفترة ما بعد مروي ثقافتها ومجموعاتها السكانية التي صنعت الأحداث قبيل دخول المسيحية بالشكل الذي أدى إلى بروز قوى شكلت نواة ممالك قادت مجمل الإنتاج والتطور الحضاري خلال العصر الوسيط في بلاد النوبة. وذلك بمحاولة الإجابة على عدد من الأسئلة الاتية: من هم مؤسسو الممالك النوبة المسيحية وما دورهم في الفترة التي سبقت دخول المسيحية إلى النوبة. وهل كان لهم دور في انهيار مملكة مروي. وهل لفترة مابعد مري رابط ثقافي بالفترات السابقة لها ولاسيما الفترة المروية.

الفترة المروية المتأخرة وانهيار مروي

شهدت الفترة المروية المتأخرة عدداً من التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية قادت في مجملها إلى سقوط المملكة. ومن المعلوم أن انهيار هذه المملكة قد ألقى بظلاله على شتى ضروب الحياة في السودان حينئذ. وذلك بدخول البلاد في مرحلة جديدة لها ما بعدها كما سنعرض لها لاحقا.

تحدث عدد من العلماء والباحثين عن أسباب تدهور مملكة مروي وانهيارها. فعلى سبيل المثال يعزي وليم آدمز ذلك إلى عوامل اقتصادية تتمثل في تدهور التجارة المروية، نتيجة لسيطرة الرومان على مصر، وظهور قوى جديد في الهضبة الحبشية. مما أدي لفقدان مروي السيطرة على التجارة عبر البحر الأحمر. وتدني تجارتها مع مصر التي ارتكزت عليها معظم التجارة المروية عبر عصور طويلة. هذا بجانب تزايد نفوذ وقوة بدو الصحراء وتهديدهم لحركة القوافل التجارية (Adams, 1977: 383-385).

و نجد أن لازلو توروك يرى أن تدهور وانهيار مملكة مروي كان بسبب المصاعب التي واجهتها حدودها الشمالية، بسبب الصراع المتواصل مع الرومان وقبائل البلميين. إضافة إلى الهجمات العديدة التي شنتها مملكة أكسوم الحبشية على أطراف مملكة مروي الجنوبية ثم مركز المملكة لاحقا. كل هذا بجانب العوامل الداخلية التي تمثلت في استقرار قبيلة النوبا في مركز المملكة الذي أحدث تحولا في النسيج الاجتماعي والثقافي (Torok,1992:141).

إن هذه الأسباب في حالة إجمالها حتما تؤدي لزعزعة استقرار أي كيان سياسي بأن تضرب في تجارتها الخارجية، ثم تتآكل حدودها بسبب الهجمات من قوى أخرى مناوئة لها. ولكنها ليست كافية تماما لإسقاط وزوال دولة قوية ومتماسكة داخليا، ولها المقدرة على فرض سلطانها على أراضيها، ومجابهة الأخطار الخارجية. ولكن من الواضح أن هناك أسباباً أخرى أدت إلى فقدان مملكة مروي المقدرة على مجابهة الأخطار التي أحدقت بها.

ولعل أهم هذه الأسباب اتساع رقعة المملكة وتعدد أجناسها وقبائلها. وهذا أمر يصعب معه فرض هيبة السلطة في كل أنحاء المملكة. ويظهر ذلك بوضوح في ضعف انتشار عبادة الإله أبدماك التي قامت عليها أركان الدولة الثيوقراطية المروية في فتراتها المتأخرة.

وفي هذا المنحى يقول وليم آدمز أنه لا توجد دلائل كافية لعبادة أبدماك في النوبة السفلى. كما أن الأعمال الأثرية خارج جزيرة مروي لم تكشف بعد عن انتشار واضح لمعابد الإله أبدماك. هذا بجانب أن المناطق الشمالية الواقعة على الحدود مع مصر كانت معقلا لعبادة الالهة إيزيس من مركزها في جزيرة فيلة، وكانت من القوة الروحية بأن أصبحت مرعية من المرويين والرومان على حد سواء.

ويمضي آدمز إلى القول بان تقديس إيزيس في النوبة السفلى يمثل بداية لواحد من أهم التحولات الايدولوجية في التاريخ، بأن أصبح أول دين دولي لا يقف عند اعتناق أي حاكم بمفرده بل ديانة تظلل الجميع بقدسيتها. وأصبحت فيلة مدينة مقدسة ومكان للحجيج من كل الطبقات والجنسيات من اغريق ورومان ومصريين ومرويين وبدو صحراء. وذهب بحديثه الى أن ماثل نفوذ الكهنة القيمين على عبادة إيزيس بنفوذ الفاتيكان في الأزمان اللاحقة (Adams, 1977:355, 336-338).

وعليه فمن الواضح أن الديانة الرسمية في الفترة المروية المتأخرة لم تفرض نفسها ولم يعرها سكان النوبة السفلى إهتماماً كثيراً ويعزى ذلك ربما لبعد المنطقة عن مركز إشعاع ديانة أبدماك في جزيرة مروي. أما المناطق الأخرى فلم تحظ بمثل ما حظيت به النوبة السفلى من دراسات مكثفة بيد أن ما أجريت من دراسات حتى الان ليس فيها ما يشير إلي انتشار شامل لديانة أبدماك في أطراف وأنحاء المملكة.

أما النسيج الذي تكون منه سكان ومجتمع مملكة مروي فقد ذكر عدد من الكتاب منهم بطليموس، قبائل ومجموعات سكانية عديدة سكنت مملكة مروي خاصة في فتراتها المتأخرة منها على سبيل المثال لا الحصر النوبة والنوباديين والبلميين والمقاربري والكولبي والاتيروي (Desanges, 1992:195). وكان لبعضهم على الأقل أطماع في السيطرة على أجزاء من أراضي المملكة. هذا بجانب الهجرة الكبيرة لقبيلة النوبة لمركز المملكة وتسببها في حدوث تغير في النسيج الاجتماعي والثقافي تسببت بطريقة ما في تفكك المملكة (Torok, 1992:141).

ومع كل ما ذكر آنفاً فان الحكم المروي اتصف بلا مركزية لم يسبق لها مثيل منذ إنشاء حكم الأسرات المالكة، وذلك بان قسمت المملكة لثلاث محافظات هي النوبة السفلى، نبتة، والمحافظة الجنوبية (الخريطة رقم 1). وكانت هذه المحافظات تحكم بواسطة حكام معينين بيروقراطياً من طرف البيت الملكي، وانتهى بهم الأمر في الفترة المروة المتأخرة عند حكام متوارثين للحكم شبه مستقلين. وصاحب ذلك ظهور أصحاب الثراء الكبير من البرجوازية الذين أصبحوا نواة لظهور مجتمع إقطاعي متأصل في النوبة (Adams, 1977:331).

كل هذه العوامل وربما غيرها مما لم نتعرف عليه بعد قادت في النهاية إلى أن تفقد مملكة مروي هيبة السلطة وقوة الإدارة والنفوذ على كثير من أجزائها. فصارت ضعيفة متهالكة لا تقوى حتى على كبح

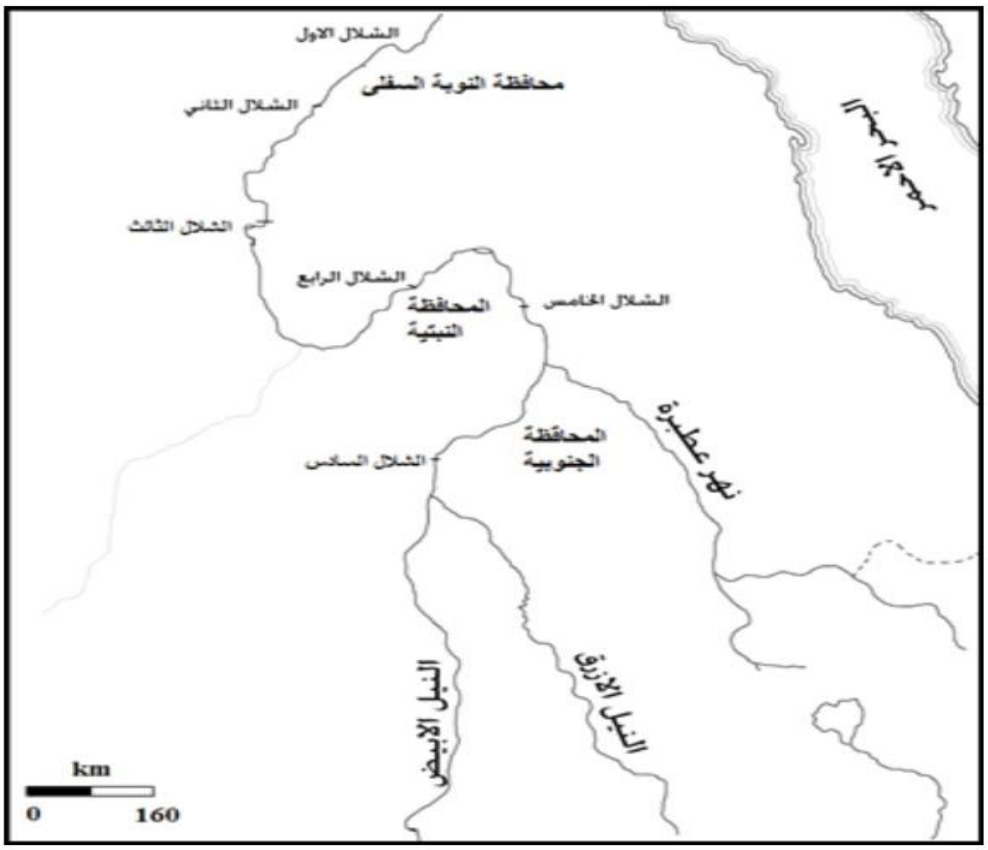

الخريطة رقم (1) المحافظات المروية في الفترة المتأخرة

جماح سكانها من بدو الصحراء وتأمين تجارتها الخارجية. لتأتي مملكة أكسوم الحبشية في منتصف القرن الرابع عشر وتقضي عليها دون مقاومة تذكر من السلطة القائمة في مروي، لتنتقل البلاد لعصر جديد هو عصر ما بعد مروي.

فترة ما بعد مروي

فقدت بلاد النوبة عملياً بسقوط مروي السلطة المركزية التي كانت تنظم شتى سبل وضروب الحياة لفترة امتدت لأكثر من ألف عام كانت بدايتها تأسيس مملكة نبتة على سفوح جبل البركل في حوالي القرن التاسع ق.م. وبذلك دخلت البلاد في عهد جديد غير واضح المعالم تماما، مما حدا بالباحثين إلى الاختلاف كثيرا

خاصة حول تسميته. فمنهم من يسميه عصر ما بعد مروي Post-Meroitic باعتبار الفترة امتدادا لثقافة مروي. ومنهم من يكتفي بإطلاق لفظ المجموعة المجهولة X-Group . وفئة يسمونه ما قبل المقرة (Pre-Makurea). وآخرون ينسبونه إلى أسماء المواقع الأثرية التي تعود لهذا العهد مثل اسم ثقافة البلانة Ballana Culture واسم Tangasi Culture.

وقد تم تناول هذا الإشكال في التسمية كثيرا من قبل الباحثين دونما اتفاق على تسمية بعينه. ولذلك يتم اعتماد تسمية ما بعد مروي في هذه الدراسة ليس انحيازاً للمنادين باستمرارية الثقافة المروية ولكن لشيوعها في الآونة الأخيرة بين الدارسين والباحثين. ويتم ذلك دونما تجاهل لأهمية المواقع الأثرية مثل بلانة وتنقاسي والتي يمكنها ان تلعب دور مراكز الأقاليم الثقافية لفترة ما بعد مروي.

أصول وفروع ثقافة ما بعد مروي

تتميز فترة ما بعد مروي بانتشار كثيف للمواقع الاثرية شملت جهات ومناطق عديدة امتدت من مواقع قصر ابريم بلانة وقستل وجبل عدة الى صواني الصنقر في كردفان وضمت مواقع عديدة على ضفتي النيل والبطانة وصحراء بيوضة. ومن الواضح جليا أن المقابر قد شكلت النسبة الأعلى بين أنواع المواقع الأثرية في فترة ما بعد مروي من حيث الكمية والانتشار ولكن من الصعب في الوقت الحالي معرفة الامتدادات الحقيقية لمواقع هذه الفترة الى أن تغطي الدراسات الاثرية الميدانية كل الاماكن التي يفترض ان تكون هذه المواقع قد امتدت اليها.

وبالرغم من هذا الثراء الكبير لآثار فترة ما بعد مروي إلا أن أصول ثقافتها كان موضع جدل واختلاف بين الدارسين للحضارة السودانية. ولعل السبب الرئيسي لهذا الاختلاف هو مكتشفها عالم المصريات الأمريكي جورج اندرو رايزنر. فعندما جاء هذا العالم الكبير ببعثته الاثرية لدراسة الاثار التي ستغمرها مياه خزان أسوان في الفترة من 1907-1911 كانت الاثار والتاريخ الحضاري جنوب مصر مجهولة الى حد بعيد. وحين وجد في الجبانة رقم (7) بمنطقة الشلال جبانة مختلفة ثقافيا واثنيا عن تلك الموجودة في مصر اطلق عليها اسم المجموعة المجهولة (x-group) . وقد وصف رايزنر مقابر هذه الجبانة بأنها نوع مميز عن المقابر المصرية وتختلف كليا عن الرومانية كما أن محتوياتها تدل على ثقافة غير مصرية. وهي سلالة بشرية غير معروفة (Reisner, 1910:354). غير أن الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة قد توصلت إلى أن المجموعة المجهولة وأهالي المملكة المروية الى أصل واحد متعدد الفروع (أبوزيد، 1997:ص 82).

إن الدراسات العديدة التي أجريت على مواقع ما بعد مروي في الفترات اللاحقة لرايزنر قد وفرت مادة علمية غنية للباحثين جعلت معظمهم يتفقون على أن ثقافة هذه الفترة لم تبتعد عن سابقتها المروية.

بعد أن نقب قريفث عن جبانة مروية وما بعد مروية في فرس خلص الى أن هناك انتقالاً حقيقياً بينهما. وبالرغم من الظهور المفاجئ لثقافة ما بعد مروي إلا أن تواصلها مع الثقافة المروية يبدو أقوى بروزا. أما جونكر فيرى فقد لاحظ أن ليس هناك فرق صارخ بينهما، وأن قوالب القبور تتماثل بكل منهما ولا توجد إلا بعض الفوارق الفردية ، وأنهما تحتويان على أدوات حديدية مثل الحراب ورؤوس السهام وهي ثقافة نوبية متفردة يتصاعد نموها الى الثقافة المروية. إن التنقيب عن عدد من مواقع الاستيطان يوضح أن لا انقطاع بين مساكن الفترة المروية وفترة ما بعد مروي، وانّ هاتين الثقافتين على الأقل في النوبة السفلى ليستا سوى فصول متعاقبة في تاريخ ثقافة واحدة (Adams, 1977:390-392).

هناك دلائل استمرارية بين الثقافة المروية وخليفتها ثقافة ما بعد مروي، وبالمقابل هناك دلائل قوية على التغير. وبعض جوانب العادات الكوشية قد استمرت كما ذكر آنفاً، بينما يتمثل عدم الاستمرارية في إعادة البعث لتقاليد قديمة جداً مثل استخدام المدافن التلية كصروح جنائزية ملكية. وهذا النوع من الصروح نجدها في المدافن الملكية في فترة مملكة كرمة، والتي استمرت في مقابر ملوك كوش الاوائل في الكرو. ويذكر درك ولسبي أن هناك عادات قديمة قد استمرت من كرمة عبر الفترات الكوشية الى البلانة وقستل مثل دفن القرابين البشرية والحيوانية كذا الحال بالنسبة الى الدفن على الأسرة الخشبية (العنقريب) (Welsby, 1996: 202).

ويؤكد وليم آدمز بان التواصل الثقافي الوثيق بين كرمة والبلانة يعكس شيئا يفوق المصادفة التاريخية، وإن الاستمرارية الثقافية ليست في شكل المقابر فقط إنما كذلك في الحجم بين أكبر مدافن البلانة وقريناتها في كرمة وبنفس القدر تغطية المدافن التلية بالحصا الأبيض وهي إحياء متعمد لرمز ملكي قديم، (Adams, 1977:416).

أما مقابر الهوبجي فما هي إلا مقابر أفراد البيت الملكي بعد انهيار مروي. وأن ثقافة ما بعد مروي ما هي إلا استمرار للثقافة الكوشية، مع الإقرار بوجود بعض التأثيرات المصرية و الإغريقية و الرومانية بسبب بعض الهجرات الوافدة من الشمال (Welsby, 1996: 202-203).

ويرى لازلو توروك أن المدافن تظهر عدداً من السمات المرَّوية، لكن لا يجوز بحال وصفها بالمرَّوية على أساس الديانة الجنائزية. ومن المرجح بأنه لم توجد في تلك الفترة طقوس مرَّوية، كما ولا وجود لكهنة مرَّويين. وأبعد من ذلك، فإن المقبورين في مدافن قسطل لم يكونوا مرَّويين. والسمة المهمة في مقابر قسطل هى كثرة الموضوعات في قائمة المحتويات التى تشير الى علاقة بين روما وأصحاب تلك المدافن (Torok, 1992:42).

وأيا كان تباين هذه الآراء في تفاصيل عناصر ثقافة فترة ما بعد مروي من حيث وجود تأثيرات الثقافة المصرية وثقافات البحر الأبيض المتوسط، الا أنهم لم يختلفوا حول الاستمرارية بين الثقافتين

المروية وما بعد المروية وأن الأخيرة لم تكن معزولة أو منقطعة عن سابقتها، بل كان هناك تواصل وانسجام بينهما.

إن فترة ما بعد مروي وبالرغم من حملها للكثير من عناصر الاستمرارية الثقافية من الحضارات النوبية السابقة لها إلا أن تواصل عمليات الكشف الأثري قد أوضح تباينا للعناصر الثقافية لهذه الفترة نفسها بين شمال النوبة وجنوبها.

يتجه معظم الدارسين لتقسيم النوبة خلال هذه الفترة إلى ثقافتين هما ثقافة البلانة وثقافة تنقاسي وبالتالي فالضرورة تقتضي وجود أماكن بعينها لانتشار هاتين الثقافتين. عن ثقافة البلانة فيرى (أمري، 1970: 255) أن أكبر تجمع لها توجد في في كلابشة وابريم وعدة وفرس وجمي وفركة وصاي و واوة. أي تمتد من شمال النوبة حتى اقليم عبري-دلقو ويمتد توروك بالحدود الجنوبية حتى منطقة الشلال الثالث (Torok, 1992:142) في حين أن ولسبي يربط موقع تبو في إقليم دنقلا بثقافة البلانة(Welsby, 1996:128). إلا أن جاك وبونيه وبعد أن قاما بعمليات تنقيب في الموقع أكدا انتماؤه لثقافة تنقاسي (Jacquet and Bonnet, 1971:77-84). ويقول وليم آدمز أن الحد الشمالي لثقافة البلانة هو الشلال الأول أما الحد الجنوبي يحتمل أن يكون في إقليم عبري دلقو أو في الطرف الأدنى من اقليم دنقلا (آدمز، 2004: 359-360).

وفي فترة لاحقة قام باتريس لينوبل بإجراء عمليات مسح وتنقيب واسعة للمقابر التلية الضخمة التي تعود الى هذه الفترة في الهوبجي بداية من العام 1983 وخلص الى نتائج تختلف عن ما قدمه الباحثون الذين قدموا دراسات عن هذه الفترة ارتكزت على الوحدة الثقافية بين مروي ومابعد مروي من جهة وبين الاقاليم النوبية من جهة ثانية مشككا فى أمر انهيار مملكة مري. وبنى لينوبل آراءه على انتقاد الدراسات السابقة وتفنيد حججها وبراهينها التي يمكن اجمالها في الآتي:

اعتمدت مقارنات أمري وكيروان لمقابر قستل وبلانة على العادات الجنائزية الموجودة قي المقابر المصرية دون سواها.

لم يتمكن امري بعد تنقيبه في قستل من التعرف على المغزى من دفن الحيوان في المقابر بشكل كاف رغم انها جزء من الشعائر الدينية الملكية في مروي وكان عليه أن يسترجع ما كشف عنه في الهرم رقم 11 في البجراوية الشمالية.

فشل امري في التفسير الصحيح للاسلحة التي وجدت في مقابر قستل وبلانة رغم علمه بنوعية الاسلحة التي تظهر في النقوش والرسومات الملكية المروية. ولم يتمكن امري من ايجاد رابط بين الاهرامات المروية والمدافن التلية في بلانة. ولم يستطع امري من أن يربط بين الاواني الفضية ذات الاشكال الغريبة والفوهة المسطحة التي وجدت في بلانة مع تلك الأواني التي وجدت في الأهرامات

المروية رغم وحدة وظيفتها الجنائزية المرتبطة بالإطعام وسكب اللبن وتلازم في العادة الأبقار المضحى بها جنائزيا.

يجد لينوبل العذر لمن انتقد أعمالهم من الباحثين ويقول إن اهرامات مروي التي تم التنقيب فيها بين 1921-1923م لم ينشر عنها إلا بين 1952-1963م وبالتالي لم تكن معروفة بشكل كامل لمن نقبوا عن بلانة وقستل بين 1934-1935م ونشر عنه بسرعة في عام 1938م.

وأخيراً يخلص الى أن سكان مروي وما بعد مروي يشكلان مجتمعاً واحداً لم يدخل عليه تأثير خارجي هام، كما أن نهاية مري ربما لم تنجم عن حدث سياسي أو عسكري بل حدثت أحداث خلال القرنين الرابع الخامس قادت نفس العناصر البشرية من إمبراطورية مروية موحدة إلى ممالك ثلاثة في القرن السادس الميلادي (Lenoble1996:70-88).

نستخلص من كل ما ذكر أن الوحدة الثقافية بين شمال وجنوب النوبة كانت موجودة في فترة ما بعد مروي الى حد كبير وهذا يقودنا الى صعوبة بالغة في ايجاد الحدود الثقافية خلال هذه الفترة وما الاختلاف حول موقع واحد مثل تبو بين الباحثين إلا دليل على ذلك وكل ما هناك تباين في المستويات الاقتصادية نتجت عنه بعض التباين الثقافي بين شمال قريب من مصر يتمتع بعلاقات شتى مع مصر يفرضها الجوار الجغرافي، وجنوب بعيد يفتقد الى هذه الميزة. وبالرغم من ذلك إلا أن تأثير هذا التباين ربما يكاد أن يتلاشى في إقليم دنقلا وفي تبو بالتحديد وهذا ربما يفسر الاختلاف الذي ظهر بين الباحثين حول هذا الموقع.

المجموعات السكانية في فترة ما بعد مروي

تشير العديد من المصادر التاريخية الى مجموعات بشرية متعددة خلال فترة ما بعد مروي بعضها كان له دور بارز في مجمل العملية السياسية والعسكرية والادارية قادت في النهاية الى ظهور الممالك النوبية الثلاث التي قادت البلاد خلال العصر الوسيط النوبي.

البلميون مثلا تاريخهم طويل في المنطقة حسب أبدقراف الذي يذكر بأن البليميين قد يكون ورد ذكر لهم في قائمة أسماء امن-م-بت Imn-m-ipt من المملكة الحديثة. ويشير إلى أن هذا الأمر غير متفق بشأنه لكن هناك العديد من المرجعيات عن البليميين في النصوص الديموطيقية منذ القرن السادس ق.م (Updegraff,1988:55). يضيف توروك بأن السجلات النبتية توضح أنه في القرن السابع ق.م. أخذ البليميون في الدخول إلى النوبة السفلى (Török,1987:44). وبالرغم من ذلك إلا أن دورهم لم يظهر بصورة جلية في تاريخ الحضارة السودانية إلا في الفترة المروية المتأخرة وفترة ما بعد مروي.

أطلق الكتاب القدماء منذ القرن الأول الميلادي على سكان الصحراء اسم البلميين Blemmyes . وذكر بروكوبيوس في القرن السادس الميلادي أنهم يسكنون المنطقة الممتدة من حدود مصر إلى أكسوم. وقد أطلق كوزس التاجر المصري الذي عاش في هذا الوقت على سكان المنطقة اسم بجا Bega (مسعد، 1960: 29) .

وعلى أي حال فقد قفز البلميون إلى واجهة التاريخ عندما قام الرومان ببناء عدد من المعابد في فيلة وكلابشة والواحة الداخلة في الفترة من 60-160م بغرض تثبيت دعائم نفوذهم وتوسيع التجارة بين مصر وبلاد كردفان ودارفور. الا أن هذه السياسة السلمية افسدتها غارات البلميين الذين كانوا يستوطنون في بعض جهات النوبة السفلى جنوبي المحرقة منذ زمن البطالمة. والمعروف أن هؤلاء البلميين لم يستقلوا بالمنطقة تماما بالرغم من احتلالهم لها. ورغم ذلك الا أن منطقة النوبة الرومانية (دوديكاشينوس) لم تسلم من غارات البلميين المتكررة لففترة طويلة من الزمان (مسعد، 1960: ص 28).

ولعل كثرة المصادر التي تتحدث عن البلميين باعتبارهم سكان الصحراء تارة، وباعتبارهم سكان اقليم النوبة السفلى المتاخمة للدوديكاشينوس تارة اخرى، قد حيرت الباحثين كثيراً، غير أن الناظر للقبائل السودانية الحالية بتمعن يرى أن لا غرابة في بدوية جزء من القبيلة وحضرية الآخر منها مثل البجة الرحل في الصحراء الشرقية والبجة المستوطنون في عدد من مدن شرق السودان مثل هيا وسنكات وسواكن وكسلا وبورتسودان وغيرها، والمناصير المستوطنين على النيل في شمال السودان والمناصير الرحل في صحراء بيوضة، والحسانية في عدد من البوادي والحضر وغيرها الكثير. وعطفا على ذلك فربما ظل قسم من البلميين يشكلون بدو الصحراء الشرقية بينما قام قسم آخر بتغيير نمط حياته واستقر في مدن وقرى على النيل في النوبة السفلى.

أما النوباي فقد جاء ذكرهم لأول مرة بواسطة استرابو في حوالي العام 200 ق.م. ووصفهم بأنهم قبيلة كبيرة مستقلة عن مملكة مروي وتعيش غرب النيل بين مروي وانحناءات النيل وتشير العبارة الأخيرة بكل تأكيد إلى إقليم دنقلا. وفي القرن الأول الميلادي ذكر بليني الأكبر بأنهم يعيشون في وادي النيل. ووضعهم بطليموس على الضفة الغربية وجزر النيل في عام 150م (Arkell, 1961:173-177). غير أن الأدلة الأثرية والمصادر التاريخية لم تتناول أي دور بارز لهم خلال الفترات المذكورة آنفا. ولم توضح شكل الاستقلال الذي ذكره استرابو. أي هل كانت لهم دولة مستقلة بجانب مروي أم فقط كانوا خارجين عن النظام والإدارة المروية أو غير ذلك. كما ورد اسم النوباديين في بعض النصوص من مملكة مروي وفترة ما بعد مروي بصور مختلفة مثل (Noba, Nouba, Anube, Noubdes, Nubae) .(Daffa-alla,1989:66)

والمعروف أن الكثير من العلماء والباحثين وعلى رأسهم شيني وكروفوت وزيلارز يرون أن النوبة قد وفدوا الى النيل من مناطق كردفان ودارفور، استنادا على التشابه اللغوي بين اللغة النوبية النيلية الحالية والتي يتم التحدث بها في المنطقة الواقعة بين الدبة وأسوان ولغة الميدوب في دارفور وبعض لغات جبال النوبة في جنوب كردفان (Zyhlarz, 1928، Crowfoot, 1925 و Shinnie, 1955).

ويرى آخرون كثر أيضاً أمثال مردوك وآركلأن النوبية قد انتقلت من وادي النيل إلى كردفان ودارفور بسبب هجرة النوبة اليها فراراً من بطش الغزاة الاكسوميين في منتصف القرن الرابع الميلادي أو غارات العرب المسلمين بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر وأن النوبية قديمة في وادي النيل قدم التاريخ (Murdock, 1959، Arkell1961).

ولعل الدور الواضح لهؤلاء النوبة في تاريخ السودان يبدأ بالظهور عندما تحدث عيزانا عنهم، حين غزا مروي في القرن الرابع الميلادي، قائلا انه شن الحرب على النوبة عندما شقوا عصا الطاعة – وسمى بعضهم النوبة الحمر- وعندما هربوا لاحقهم وحاربهم في الاتبرا ومياه الكيمالك الضحلة. وعندما هربوا منها، تتبع إثرهم لمدة ثلاثة وعشرين يوماً يقتل بعضا، ويأسر اخر، ويحرق مدنهم المشيدة بالطوب والمشيدة بالقصب. واخذ جنوده طعامها وحديدها ونحاسها ودمروا تماثيل معابدها وخزائن أطعمتها وأشجار القطن والقوا بها في النهر . وذكر عيزانا بعض مدن النوبة مثل علوة ودارو (Budge, 1928:252-258).

اهتم الباحثون كثيرا بالمعلومات التي وردت في نص عيزانا، ولكن ما يهم أن نستخلصه من هذا الجانب، أن هؤلاء النوبة لم يكونوا مجرد قوم يتبعون لمملكة مروي، أو يعيشون في أرضها، أو جوارها، إنما كانت لهم مدنهم وتنظيمهم الاجتماعي والاقتصادي، بل والعسكري، حتى أنهم اثروا على تاريخ الإمبراطورية الكوشية، بافتعالهم المشاكل مع رعايا مملكة اكسوم الحبشية، التي وجدت ذريعتها في ذلك، وغزت مروي وقضت على آخر ملكها. كما يلاحظ ظهور اسم علوة كمدينة نوبية حملت اسم المملكة النوبية الجنوبية في العصر الوسيط لاحقا.

أما في الشمال أي النوبة السفلى، فلم يظهر أي ذكر للنوبة أو نوباتيا أو أي اسم اخر غير البلمييز. أي أن هناك نحو مائة عام من نص عيزانا لم يتم التوثيق فيها لهؤلاء القوم. إلا أن أمري يقول أن في العصر الذي يقع بين القرنين الثالث والسادس والذي انتعشت فيه حضارة البلانة كان يحتل النوبة حنسان مختلفان هما البلميز والنوباتاي. ومع أن معظم المستدات تعتقد أن هذه الحضارة تعود لنوباتاي، إلا انه يعتقد- حسب الحجج كما يقول- أنها تعود الى البلميز(أمري، 1970:ص 242). ولكن الصعب أن ننسب هذا الحضارة إلى شعب بعينه في الوقت الراهن. لأنها تميزت بالاستمرارية من الحضارة السودانية

السابقة لها، ولا تعبر عن حضارة وافدة أو عن حضارة معزولة عن سابقتها نتجت عن شعب معزول عن جل التراكيب الاجتماعية التي أنتجت حضارة سودان وادي النيل.

وعن الشعب الذي نحن بصدده الآن، ومنذ منتصف القرن الخامس قفز إلى سطح الأحداث في النوبة السفلى اسم النوباتاي أوالنوبابادیین. ففي عام 452م يتحدث الروماني بروسكوس عن أن الإمبراطور مارسيانوس أراد حماية شعب مصر فأرسل قائده ماكسيموس لمحاربة البلميز والنوباتاي، فهزمهم هزيمة منكرة. فأرسلوا رسلا يمثلون الأمتين الى ماكسيموس طالبين الهدنة للصلح. ودخل معهم ماكسيموس بعد ذلك في هدنة قضى بان يعيد النوباتاي والبلميز جميع الاسرى والغنائم التي اخذت من الرومان، وان يسلموا أبناء العائلات الراقية من الجانبين لروما ضمانا لتنفيذ شروط الهدنة، مقابل أن يسمح لهم بالمرور لمعبد ايزيس في فيلة لممارسة عقيدتهم (أمري، 1970:ص 247). وهذا يعني بوضوح أن النوباتاي كان لهم وجود سابق للتاريخ المذكور بما يمكنهم من الرسوخ في عقيدة ايزيس فيلة ويوفر لهم القوة اللازمة لتهديد أمن مصر مع رصفائهم البلميز.

وتؤيد قوتهم هذه رسالة تم الكشف عنها في قصر ابريم، كتبت باللغة القبطية في طبقة تعود لنفس الفترة. أي منتصف القرن الخامس الميلادي من ملك البلميز إلى الملك ابورني ملك النوباديين وابنيه. وموضوعها التماس لإرجاع تالميس مدينة البلميز التي استولى عليها النوباديين (Daffa-alla1989: 8). وبجانب هذه القوة فان الرسالة تكشف ان النوباديين كانت لهم وجودهم في المنطقة، وكانت لهم مدنهم وأملاكهم. ولو كان هذا غير صحيحا لما طلب البلمييز إرجاع تالميس فقط بل كانوا سيطلبون مغادرة كل منطقة النوبة السفلى باعتبارها أرضاً لهم.

ويقول أمري أنه ومنذ حلول عهد الإمبراطور دقلديانوس (234-305) رأى الرومان أن مقاطعتهم في النوبة والتي تسمى دوديكاشينوس، منطقة فقيرة ومرهقة ماديا، لأن إنتاجها لا يوازي ما يصرف على الدفاع عنها. فقرروا الانسحاب شمالا، بنقل حاميتهم العسكرية من المحرقة الى أسوان. وكان الدفاع عن حدود مصر الحنوبية يتم بتوطين النوباديين في المناطق التي تم إخلاءها. وهم أصلا من سكان واحة الخارجة. وقد قبل النوباديون بذلك وأقاموا على ضفتي النيل جنوب فيلة (Emery 1938:187).

والملاحظ أن ما ذهب إليه أمري يبدو ضعيفا من حيث تناقضه مع نص بروسكوس الذي ذكر آنفا والذي يوضح أن النوباديين كانوا في عداء مع الرومان وليسوا حلفاء لهم ومدافعين عنهم من هجمات البلميز. هذا بجانب أنهم كانوا من المنتمين لديانة ايزيس ديانة سكان النوبة السفلى في أواخر مروي على الأقل وفترة ما بعد مروي. كما أن أمر أصولهم التي تنتمي لواحة الخارجة يبدو متناقضا مع نص استرابو والمصادر المروية التي ذكرت سابقا.

وهناك نص في لوحة سلكو زعيم النوباديين سيأتي لاحقا، يشير إلى ارتباطه بالبلاد العليا. وليس من المؤكد إن كانت هذه إشارة إلى النوبة العليا باعتبار أعلى النهر أم الصحراء. ولكن الأرجح يقصد النوبة العليا، لأنه يشير في مكان آخر من النص إلى ملوك نوباتاي آخريين في البلاد العليا. وهذه اشارة الى سكان آخرين مستقرين ومنظمين سياسيا تحت راية ملوك في منطقة غير واحة الخارجة. لأن ما ذكر بأن الرومان أغروهم على ترك واحة الخارجة لا يفيد بأنهم أغروا البعض من النوباديين وتركوا الاخر. ولا نعتقد بأن واحة الخارجة هي المكان الملائم لهؤلاء الذين يتحدث عنهم سلكو. ولم تظهر الفترات اللاحقة أي قوى في الصحراء الغربية حيث الواحة المذكورة. ويدعم هذا الرأي ما ذهب اليه تريقر بأن النوباديين كانوا مستقرين في وادي النيل وكانوا يشنون الغارات على واحة الخارجة (Trigger, 1965:134-135). ويتفق معه آركل رافضا مبدأ إرجاع موطن النوباديين الأول إلى واحة الخارجة، باعتبار عدم وجود أي دليل مادي مؤيد لذلك. وذهب إلى أن آثار فترة ما بعد مروي في النوبة السفلى تنسب إليهم دون غيرهم. ويقترح أن يكون النوباديين قد انحدروا من منطقة نبتة بالقرب من الشلال الرابع، وأن مقابر فترة ما بعد مروي في تنقاسي والزومة تنسب اليهم(Arkel, 1921:178-185). واستنادا على ما دونه عدد من النصوص التاريخية ومن بينها كتاب يوحنا الأفسوسي يقول مصطفى محمد مسعد أن النوبيين منذ القرن الثالث ق.م. حتى القرن السادس الميلادي ما هم إلا قبيلة أو شعب سكن وادي النيل من الشلال الأول حتى جزيرة مروي. وفي القرنين الخامس والسادس الميلاديين كانوا يسكنون جهة النوبة السفلى. وكانوا عنصرا متمايزا عن بقية الأثيوبيين. واستبعد تماما انحدارهم من واحة الخارجة (مسعد، 1960: ص 13-14).

ومن الأهمية ذكره في نهاية الحديث عن هذا الجانب، أن كلمة نوبو Nubu وتعني الذهب في اللغة المصرية القديمة، هي أحد الأسماء التي أطلقها المصريون القدماء على بلاد النوبة. ويظهر ذلك بوضوح في نقش يعود الى عهد أمنحتب الأول (1450-1423 ق.م.) (Macmichael, 1922:12).

ولكن وبالرغم من التشابه الكبير بين هذه الكلمة واسم المجموعة البشرية التي نحن بصددها الآن لغويا ومكانيا، إلا انه من الصعب الجزم بان كلمة نوبو قد انتقلت من اسم لمكان إلى اسم لمجموعة بشرية قطنت فيه في يوم من الأيام.

قيام الممالك النوبية والتحول إلى المسيحية

هناك غموض كثيف يكتنف قيام الممالك النوبية الثلاث نوباتيا والمقرة وعلوة وذلك بسبب عزوف زعمائها ورعاياها عن التدوين والتوثيق. وكل ما كتب بواسطة الأجانب لم يهتم قط بما يدور في النوبة، إلا بقدر ما يرتبط بالممالك التي ينتسبون إليها مثل الرومان. ولذا يتم الاعتماد عادة على النذر القليل من الكتابات، وما نجم عن حفائر في الآثار التي تتبع لفترة ما بعد مروي.

تتحدث بعض المصادر التاريخية عن صراع وحروب كثيرة من اجل السيطرة على النوبة السفلى في أواخر فترة مروي وفترة ما بعد مروي بين البلمييز والرومان من جهة، وبين البلمييز والنوباديين من جهة أخرى. وبالرغم من الصراع الطويل بين الرومان والبلميز وأهميته التاريخية، إلا أن ما يهم هذه الدراسة الصراع الذي نشب بين البلميز والنوباديين لأنه أفضى في نهاية الأمر إلى قيام مملكة نوباديا.

لعل أولى هذه الصراعات ما جاء في نص ابريم الذي ذكر سابقا. ويضاف إليه قول ملك البلميز انه لا يستخدم القوة مع النوباديين حفاظا على السلم في المنطقة. كما انه ذكر اسم سلكو ولكن ليس كملك للنوباديين.

أما الفصل في أيلولة كل السلطة والسيطرة للنوباديين في النوبة السفلى على حساب البلمييز, ما ذكره سلكو ملك النوباديين لاحقا في نص ركيك بالغة اليونانية، وجد على جدران معبد كلابشة ""تلميس" ، يقول فيه: (أنا سلكو الملك الصغير لنوباتاي وكل الأثيوبيين. ذهبنا الى تلميس وتافيس. لقد حاربت البلمييز مرتين ونصرني الله. وبعد ثلاث مرات انتصرت واحتللت مدنهم. واستقريت هناك مع جيوشي. في المرة الأولى غزوتهم وتوسلوا الى. وصالحتهم واقسموا بمعبوداتهم ووثقت بقسمهم لانني ظننت انهم رجال شرفاء. فذهبت الى البلاد العليا وعندما اصبحت ملكا صغيرا لم أتبع الملوك الآخرين ولكني كنت في مقدمتهم. فإذا أراد أحدهم أن يتشاجر معي فلا أتركه يجلس في بلده الا اذا توسل لي وتضرع لأني أسد في البلاد السفلى وغزال في البلاد العليا. لقد حاربت البلميز من بريمس الى تليلس مرة ومع النوباتاي الآخرين في البلاد العليا. لقد أغرت بلادهم ونهبتها لأنهم أرادوا ذلك. ان اسياد البلاد التي تقاتلني لا أتركهم يجلسون في الظل بل في الخارج في الشمس. ولا يشربون المياه في ديارهم. فأعدائي أخطف نسائهم واطفالهم) (أمري، 1970: 248)

وبالرغم من الإشكال الكبير في معرفة أصل النوباديين ووضعهم في النوبة السفلى، وانتماء مقابر وثقافة بلانة الى احد الشعبين النوباديين أو البلميز، وبالرغم من عدم دقة المصادر الرومانية وغيرها في توضيح حقيقة القائمين على أمر النوبة عموما، والسفلى بصفة خاصة، وبالرغم من عدم اتفاق علماء الآثار حول هذه الامور، إلا أن هذا النص يعد الأهم والأدق في معرفتنا بتاريخ مرحلة هامة من مراحل التاريخ النوبي. ويظهر ذلك في إبراز سلكو مراحل حربه مع البلمييز حتى كتب له النصر أخيرا في حربه الثالثة، والاستيلاء على كافة النوبة السفلى، وتبلور مملكة نوباتيا بوضوح تام.

ويقترح آدمز القرن السادس الميلادي تاريخاً لحملات سلكو ضد البلميز (آدمز، 2004: 383). في حين أن أمري يبدو أكثر دقة ويحدد العام 540 تاريخ للمعركة الثالثة والحاسمة التي ذكرها سلكو (أمري، 1970:ص 248).

والمتمعن في لوحة سلكو يلاحظ انه يصف نفسه بالملك الصغير. وانه بعد انتصاره على البلميز ذهب إلى البلاد العليا، وعنده لم يعد ملكا تابعا للملوك الآخرين، إنما أصبح في مقدمتهم. وهذا ربما يشير إلى ارتباط وتبعية سلكو لملوك في بلاد غير النوبة السفلى قبل انتصاره على البلميز. وربما يقصد بهم ملوك النوبيين إلى الجنوب حتى جزيرة مروي، والذين أشار إليهم مسعد (1960) على إنهم قبيلة أو شعب سكن هذه المنطقة كما ذكر سابقا.

ومن الملاحظ أيضا أن سلكو يشير إلى أن الله قد نصره, والى معبودات البلميز التي اقسموا بها. وكأنما لم يعودوا يعنون له شيئا، رغم ما ذكر سابقا بأن النوباديين كانوا من أتباع ديانة ايزيس في فيلة كما البلميز. ويفسر أمري ذلك بأن حرب سلكو ضد البلميز حدثت بعد أن اهتدى الى الدين المسيحي على يد المبشر جوليان مبعوث الإمبراطورة ثيودورا خصيصا لهذه المهمة (أمري، 1970:ص 248).

والمعلوم أن الديانة المسيحية قد دخلت ارض مصر في وقت مبكر، فناهضتها الإمبراطورية الرومانية وتعرض من اعتنقوا المسيحية إلى الاضطهاد، فهاجر بعض المتحمسين للدين الجديد إلى بلاد النوبة، فاثروا على من اختلطوا بهم فاعتنقت بعضهم المسيحية (شبيكة، 1991: ص 220)

ويبدو أن المسيحية قد أخذت طريقها إلى النوبة منذ وقت مبكر، ربما القرن الأول الميلادي ويستدل ذلك بما ورد في كتاب الكاتب العربي أبي البركات من قيام آني أسقف الاسكندرية بتعميد بعض النوبين. كما تم تعميد وصيف كنداكة مروي بواسطة الاسقف فليبوس في القرن الثاني الميلادي. وفضلا عن ذلك توجد مجموعة من القصص التي تصور حياة الرهبان في اديرة مصر الجنوبية وعلاقاتهم بالنوبيين والبلميز (مسعد، 1960: ص 49-50).

وفي سبعينات القرن الماضي تم اكتشاف بعض الرسائل في قصر ابريم مكتوبة باليونانية الى ملك مسيحي اسمه كنطاني سيد نوباتيا وتعود هذه الوثائق الى حوالي 450م أي قبل قرن من انتشار المسيحية رسميا في النوبة (فانتيني، 1998: ص 9).

وعلى المستوى الرسمي فقد تم تنصير ملك نوباتيا وأسرته ورعاياه بواسطة القس يوليانوس مبعوث الامبراطورة ثيودورا التي كانت تتبع طائفة اليعقاقبة الاقباط (الأرثوذكس) إلى فرس عاصمة نوباتيا، بعد سباق محموم مع زوجها الإمبراطور جستنيان الذي كان يدين بالمذهب الملكاني (الكاثوليكي). وتم ذلك قبيل منتصف القرن السادس الميلادي (فانتيني، 1998:ص 12-13).

أما مملكة المقرة التي قامت في النوبة العليا ومركزها دنقلا العجوز فان المصادر المكتوبة عن أصلها ونشأتها كمملكة معروفة فى العصر الوسيط النوبي تكاد تكون معدومة.

وقد أرجع نعوم شقير أصلهم إلى النوبة السفلى، ذاكرا انه يقطن فيها قوم يقال لهم المقرة ومدينة ملكهم تسمى نجراش. فالنوبة والمقرة جنسان بلسانين مختلفين. وقد كان بينهما حروب قبل النصرانية (نعوم شقير 1981: 56).

ويرى آدمز أن النوبة قد شهدت في عصر ما بعد مروي أيلولة السيطرة لنخبة من السلالة النوبية و قيام عدد من الممالك الصغيرة التي لم تحظ باستقرار في حدودها السياسية والإدارية واعتمدت فقط على قوة ملوكها. ونتج عن هذا الوضع ازدهار مركزين هما فرس ودنقلا العجوز وأصبحتا نواة لمملكتين نوبيتين في العهد المسيحي الباكر (Adams, 1967: 12-13).

ولعل هذا الرأي يتفق الى حد ما مع نص الملك سلكو الذي يذكر البلاد العليا وعدد من الملوك الآخرين.

ويذهب قودليفسكي غير بعيد من ذلك قائلا أن المملكة المروية في عهدها كانت تسيطر على حركة القبائل الرحل القادمة من دارفور وكردفان باقامة نقاط مراقبة وتحصينات دفاعية في الأودية الرئيسية التي تتصل في النيل مثل وادي هور وادي المقدم ووادي الملك، حتى تمنع تغلغل تأثير النوبة الرحل في وادي النيل. غير أن تأثير الثقافة المروية قد انتقلت لنخب اجتماعية من القبائل التي دخلت وادي النيل والتي بقيت في صحراء بيوضة. وقد نجحت السياسة المروية في الحد من انتشار القبائل الرحل في وادي النيل حتى القرن الرابع الميلادي الا انها سمحت للعديد من النوبة الاستقرار على النيل. وقد أصبح هؤلاء بمرور الزمن حاملين للثقافة المروية (Godlewski, 2004: 52-54).

و قد أعطى تدهور مملكة مروي النوبة الفرصة لعبور النيل والاستقرار في البطانة. وبعد حملة أكسوم على مروي في منتصف القرن الرابع الميلادي هرب بعض النوبيين ولجأوا إلى المنطقة بين الشلاين الرابع والثالث. غير أنهم لم يدخلوا إقليم دنقلا. ولكن تبعا لهم وفد اليه قبائل أخرى في شكل هجرات غير كثيفة وكونوا نوعا من الحكم في الإقليم دونما تدمير للبنية الأقتصادية المروية أو المناطق الحضرية هناك كما حدث في البطانة. وهناك دلائل تؤكد أن التحصينات الدفاعية في دنقلا العجوز يعود أصلها الى تلك الفترة أي فترة ما بعد مروي.

مثلما اكتنف الغموض قيام مملكة المقرة فإن الأمر ذاته أنطبق الى حد كبير على كيفية تحول المقرة إلى المسيحية. فقد سكت المؤرخ الكنسي يوحنا الافسوسي عن ذكر ذلك. غير أن مؤرخ آخر هو يوحنا القوطي يقول أن وفد من مملكة المقرة قد وصل القسطنطينية في العام 574م طالبين عقد معاهدة مع الإمبراطور جزستنيوس خليفة جستنيان (فانتيني، 1998:ص 17).

ومن المرجح أن وفد الإمبراطور جستنيان بعد أن فشل في إقناع ملك نوباتيا عام 543م على إتباع المذهب الكاثوليكي، قد واصل رحلته إلى دنقلا، أو ربما قام وفد آخر من لدن الإمبراطور نفسه قاصدا تلك المناطق (فانتيني، 1998:ص 18).

وعلى كل فقد تنصرت المقرة على المذهب الملكاني (الكاثوليكي) في القرن السادس الميلادي واضعة بذلك خلافا مذهبيا مع نوباتيا في بداية عهدما بالدين الجديد.

أما مملكة علوة فهي مثل جارتها الشمالية المقرة تمتاز بندرة واضحة في المصادر التاريخية المكتوبة. ويعزى ذلك إلى بعدها من الحدود المصرية التي شهدت وجود الرومان، الذين اهتموا بتدوين أحوال إمبراطوريتهم وعلاقاتهم مع جيرانهم النوباديين والبلميز.

ويعود الفضل في معرفتنا القليلة عن نشأة مملكة علوة للأعمال الأثرية التي جرت في عاصمتها سوبا في بداية النصف الثاني من القرن الماضي بواسطة مصلحة الآثار السودانية بقيادة بيتر شيني، والمعهد البريطاني في شرق أفريقيا بقيادة درك ولسبي في الثمانينيات من القرن الماضي.

سجل فريدريك كايو في العام 1821م تمثالا مرويا لكبش صنع من الحجر في سوبا، وفي قاعدته جزء من خرطوش عليه اسم ملك. وقد اقترح هنتزا القرن الثاني الميلادي تاريخا له (Welsby and Daniels, 1990:5) . ويعد هذا في الغالب دلالة على أن سوبا كانت مدينة مروية قبل أن تصبح عاصمة لعلوة فيما بعد.

وتضم قائمة شيني للمواد الأثرية التي تم التنقيب عنها بين العامين 1950-1952م بعض الآثار

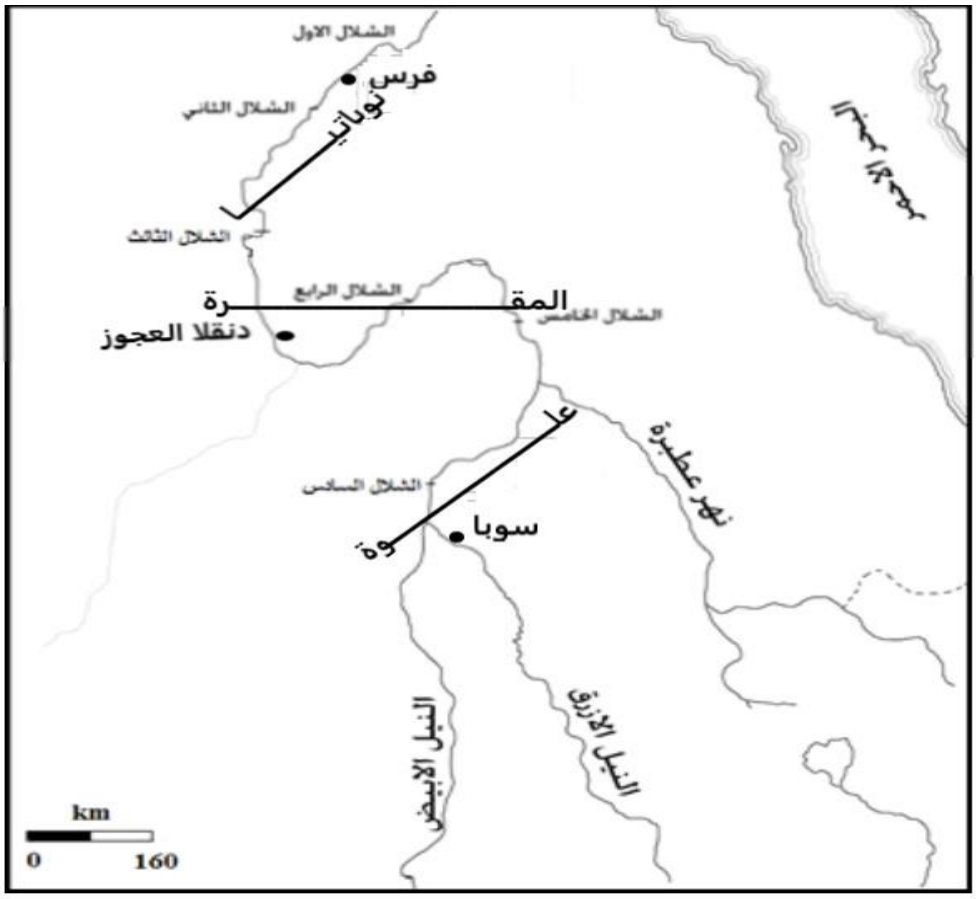

الخريطة رقم (2) الممالك النوبية في العصر الوسيط

من فترة ما قبل المسيحية في سوبا. ولاحقا تم الكشف عن جعارين نبتية ورأس أسد من الزجاج يعود الى العهد المروي. كما تم العثور على تمثال ونقش للالهة حتحور جوار مبنى ربما كان معبدا نبتيا أو مرويا في سوبا (Welsby and Daniels, 1990:5).

وفي لوحة عيزانا ذكر بأن جيش أكسوم قد وجد النوبة مستقرين في المدن مروية حول ملتقى الأنهار. وواحدة منها غالبا ما تكون سوبا (Kirwan, 1981: 116).(الخريطة رقم 2).

وهناك دلائل من أكسوم، أن الملوك اللاحقين لعيزانا كانوا يضيفون إلى لوحته أسماء قبائل تعيش في الأراضي مروي باستمرار حتى القرن السادس الميلادي. وهذا يدل على أن الأكسوميين كانوا يفرضون بعض السيطرة على جزء من الأراضي المروية, والتي غالبا ما كان تجاور حدود مملكة علوة. بجانب أن مدينة تسمى علوة قد ذكرت في لوحة عيزانا (Welsby and Daniels, 1990:5). ويقترح هنتزا أن تكون علوة هي اسم العاصمة المروية في البجراوية على بعد 190 كيلومترا شمال سوبا. وإذا كان هذا صحيحا فان اسم علوة قد انتقل من مروي الى المملكة التي عاصمتها سوبا (Hintze, 1967:83). وهذا يدل على أن مملكة علوة ربما أنشأت بواسطة حكام مرويين كانوا أحفادا لملوك مروي.

واذا كانت مروي هي العاصمة الأولى لمملكة علوة فان الدلائل تشير إلى أنها قد تحولت إلى سوبا بحلول العام 1580م إذا لم يكن قبله. ويمثل هذا التاريخ, التاريخ الأول لظهور مملكة تسمى علوة، وذلك عندما ذكر المؤرخ الكنسي يوحنا الافسوسي تحول ملكها إلى المسيحية (Welsby and Daniels, 1990:5,7) .

واللافت في تحول علوة إلى المسيحية أن ملكها قد بعث لملك نوباتيا أورفيولا، بأن يبعث اليه الأسقف القبطي لونجينوس الموجود في فرس، لينشر الديانة المسيحية في علوة على المذهب الأرثوذكسي. فوصلها لونجينوس عبر الصحراء الشرقية، خوفا من ملك المقرة الذي وضع حراسات على ممرات النيل وطرق القوافل لمنعه من مبتغاه. وخرج الملك لاستقباله عند مشارف سوبا وأكرمه إكراما عظيما. وبعدها قام الاسقف بنشر المسيحية بين المواطنين وتم ذلك في عام 580م (فانتيني، 1998: ص 14-15).

ويدل ذلك ربما إلى العلاقات الراسخة بين علوة ونوباتيا، رغم بعد المسافة بينهما حتى أن ملك علوة قد قرر التنصر على المذهب الذي عليه مملكة نوباتيا. أو ربما يشير ذلك إلى أن ملك علوة قد تنصر مسبقا على المذهب الأرثوذكسي، وأراد الاستعانة بملك نوباتيا ليساعده في بعث الرسل الأرثوذكس لينشروا المسيحية وسط مواطنيه، ويعلمهم أصول المذهب اليعقوبي.

الخاتمة:

عندما انهارت مملكة مروي في منتصف القرن الرابع الميلادي، برزت قوى جديدة مثل النوبة والنوباديين والبلميز في النوبة. وهذه القوي كانت سببا مع جملة اسباب اخرى في تدهور المملكة التي استمرت تحكم

سودان وادي النيل لما يربو عن السبعة قرون. ولعل هذه القوى التي دار لغط كثير حول أصولها كانوا من رعايا مروي في أيام حكمها وجزء لا يتجزء من شعبها. ولذلك حملت ملامح ثقافتها بعد زوالها وأسست ما يسمى بثقافة ما بعد.

تكونت ثقافة ما بعد مروي من عنصرين أساسيين هما ثقافة البلانة بين الشلالين الأول والثالث والى الجنوب منها ثقافة تنقاسي. ولم تظهر هاتين الثقافتين مع ما وجد في مقابر الهوبجي اختلافات ثقافية واضحة, سوى تنوع ربما كان سببه بعد المسافة وفروق الأوضاع الإقتصادية. ويبدو ذلك جليا من أنه في مجملها حملت ملامح من الثقافة المروية وصحبت معها عناصر ثقافية سادت في فترة حضارة كرمة.

وفي نهاية فترة ما بعد مروي وتحديدا في منتصف القرن السادس الميلادي دارت حروب بين النوباديين والبلمييز أدت إلى انتصار النوباديين وتأسيس مملكة نوباتيا التي تنصرت فيما بعد على المذهب اليعقوبي الارثوذكسي.

أما في النوبة العليا فقد قادت تحركات النوبة على النيل في الغالب الأعم، الي بروز مملكة المقرة وعاصمتها دنقلا العجوز. والتي أخذت المسيحية على يد قساوسة المذهب الكاثوليكي.

أما في سوبا بالقرب من ملتقى النيلين الأبيض والأزرق. فقد قامت مملكة علوة على يد خلفاء ملوك مروي كما يرى عدد من الآثاريين، وتطورت علي خلفية ثقافية نوبية مروية. وقد دخلت المسيحية إليها في نهاية القرن السادس الميلادي. وساد فيها المذهب الارثوذكسي.

وقد حكمت هذه الممالك النوبية المسيحية لفترة زمنية طويلة امتدت حتى العقد الثاني من القرن الرابع عشر في السودان الشمالي الحالي الذي حكمته مملكة المقرة من دنقلا العجوز بعد اتحادها مع نوباتيا. وحكمت مملكة علوة السودان الأوسط وربما الجنوبي حتى أوائل القرن السادس عشر الميلادي من عاصمتها سوبا بالقرب من ملتقى النيلين.

والجدير بالذكر في خاتمة هذا البحث ان لهذه الممالك الفضل الكبير في الحفاظ على ملامح الثقافة النوبية السودانية واستمراريتها منذ اقدم العصور حتى اليوم. كما كانت معبرا لانسياب الثقافة العربية والإسلامية الى السودان وتلاقحها مع الثقافة المحلية لتشكل في نهاية الامر الثقافة والهوية السودانية الحالية. ولذلك من المهم جدا اجراء المزيد من الدراسات والبحوث الآثارية والتاريخية لكشف الغموض عن كثير من الغموض الذي يكتنف تاريخ هذه الممالك المسيحية وفترة العصر الوسيط في السودان عموما.

المراجع

أبوزيد، أمل عمر (1997). الملامح العامة لتاريخ السودان القديم، جامعة أمدرمان الأهلية، السودان.

آدمز، وليم ي.(2004). النوبة رواق أفريقيا، ترجمة محجوب التجاني محمود، القاهرة.

أمري، وولتر (1970). مصر وبلاد النوبة، ترجمة تحفة حندوسة، القاهرة.

شبيكة، مكى (1991). السودان عبر القرون، بيروت.

فانتينى، جيوفاني (1998). المسيحية في السودان، جامعة أمدرمان الأهلية.

مسعد، مصطفى محمد (1960). الاسلام والنوبة في القرون الوسطى، القاهرة.

Adams, William Y. (1967). Continuity and Change in the Nubian Culture History Sudan Notes and Records vol. 48, Pp. 1-32.

Adams, William Y. (1977). Nubia Corridor to Africa, London.

Arkell, A.J. (1961). A History of the Sudan, from the Earliest Times to 1821, 2nd ed. London.

Budge, E.A. Wallis (1928). A History of Ethiopia, London.

Crowfoot, J.W. (1925). Further Notes on Pottery, Sudan Notes and Records, vol. 8.

Daffa-alla, S.B. (1989). Political and Social History of the X-Group Period, unpublished paper.

Desanges, J. (1992). "Cataloque des Tribus Afrcanes de L'antiquite Classrquea" Oust du Nil, Dakar.

Emery, W. (1938). The Royal Tombs of Ballana and Qustul, Cairo.

Godlewski, Wlodzimierz (2004). The Rise of Makuria (late 5th-8th cent.) Nubian Studies 1998, Pp 52-73, ed. Timothy Kendall. Boston.

Hintze, F. (1967). "Meroe Wnd die Noba". ZAS 94, Pp.79 -86

Jacquet and Bonnet (1971). Tombs of the Tangasi at Tabo. JARCE, vol.9, Pp 77-84.

Lenoble, P. (1996). The Divison of the Meroitic Empire and the End of Pyramids Building in the 4th Century A. D: An Introduction to Further Excavations of Imperial Tumuli in Sudan, paper presented in Eighteen International Conference of Meroitic Studies, Pp 68-103.

Macmichael, H.A. (1922). A History of the Arabs in the Sudan. London.

Murdock, G.P. (1959). Africa: Its peoples and their culture history, New York.

Reisner, G.A. (1910). The Archaeological Survey of the Nubia, report for 1907-1908, vol.1 (2vols.) National Printing Department, Cairo.

Shinnie. P.L. (1955). The Fall of Meroe Kush vol.3.

Torok, Laszlo (1987). 'Late Antique Nubia', Antaeus, Communicationes Instituto Archaeologico Academie Scientiarum Hungaricae. Budapest.

Torok, Laszlo (1992). Post Meroitic History and Archaeology, Etudes Nubiennes, vol.1 ed. Ch.Bonnet, Genève.

Trigger, B.G. (1965). History and Settlement in Lower Nubia, Yale University Publication in Anthropology, No. 69

Updergraff, R.T. (1988). 'The Blemmyes I: The rise of the Blemmye and the Roman withdrawal from Nubia under Diocletian'. Rise and Decline of the Roman World, Pp 44-96, Berlin.

Welsby, Derek A. (1996). The Kingdom of Kush, London.

Welsby, Derek and Daniels (1991). Soba: Archaeological Survey at Medieval Capital on the Blue Nile. London.

Zyhlarz, E. (1928) Die stellung des Darfor-Nubischen, Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlande, Bd 35